بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا

الحمد لله الذي أنزل للخلق منهجا للأخلاق عظيما، وهداهم إليه صراطا مستقيما. ونشهد ألا إله إلا الله، ونشهد أن محمدا رسول الله، صلى الله عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإني أوصيكم ونفسي – عباد الله- بتقوى الله عز وجل، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ، يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾[1]. إن القرآن العظيم –عباد الله- هو النور والهدى، هُوَ حَبْلُ الله المَتِينُ، وَالذِّكْرُ الْحَكِيمُ، وَالصِّرَاطُ المُسْتَقِيمُ، وقد حوى قواعد للأخلاق، وتضمن من التوجيهات ما فيه صلاح البشرية، وسعادة الإنسانية، ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾[2]. وسنقف اليوم عند توجيه عظيم من التوجيهات القرآنية، وإرشاد جليل من الإرشادات الربانية، توجيه يجب على كل مسلم الأخذ به، وإرشاد يقود إلى هناءة العيش، وطمأنينة الحياة، وصون الحقوق، ويؤسس مبدأ مهما في المعاملات والعلاقات الإنسانية، يقول الحق ﷻ في سورة الأنعام: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾[3]. إن الله ﷻ يأمرنا هنا –أيها الأحبة- بالعدل في الأقوال، فالعدل المطلوب من الناس تحقيقه يشمل النشاط البشري كله، ومن ذلك النشاط التلفظ بالكلمات، وصياغة العبارات، التي لا بدّ أن تكون موزونة بميزان العدل والحق، العدل الذي لا بد من إقامته، والتمسك به، ولو كان في ظاهره تفويت لمنفعة قريب، أو ضد مصلحة حبيب. إن مجانبة العدل في

(1) سورة الأحزاب/ ٧٠ – ٧١.
(2) سورة الإسراء/ ٩.
(3) سورة الأنعام/ ١٥٢.

القول من قبل الخلق ترجع إلى أحد أمرين، هما نقص العلم أو سوء القصد، فيقع البهتان من المرء حين يقيم كلامه ويبني مواقفه وتوجهاته على ظن ووهم وقلة علم، ويغوص في وحل الظلم عندما يتكلم عن خبث نية، وسوء قصد، من طلب للدنيا، وإيذاء للناس، وتضييع للحقوق، والمولى ﷻ يقول: ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾[1].

أيها المؤمنون:

إن من صور العدل في القول أن يعدل المرء عند وصف الآخرين والحديث عنهم، وإن خالفوه في الرأي، وعارضوه في التوجه، بل وإن كانوا على غير هداية وصلاح، أو إيمان وتُقى، فلا يحمله الخلاف على مجاوزة العدل في الوصف، ولا تدعوه المعارضة إلى التقول على الآخرين بغير حق، وكيف لا يكون هذا حال المؤمن وهو الذي يهز وجدانه، ويقرع أبواب قلبه قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[2]. ونحن نرى في سيرة خير الخلق صورا لهذا النوع من العدل في القول، فعندما عرض المصطفى ﷺ على أصحابه الهجرة إلى الحبشة، قال عن النجاشي الذي كان على النصرانية وقتها: ((إنّ بأرض الحبشة مَلِكاً لا يُظلَم أحدٌ عنده، فالحقوا ببلادِهِ حتّى يجعلَ اللهُ لكُمْ فرَجاً ومخرَجاً ممّا أنتُمْ فيه"، وها هو ذا –بأبي وأمي هو– قبيل معركة بدر ينظر إلى جيش المشركين فيرى أحد زعمائهم، عُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ وَهُوَ عَلَى جَمَلٍ لَهُ أَحْمَرَ، فيقول: " إِنْ يَكُ عِنْدَ أَحَدٍ مِنَ الْقَوْمِ خَيْرٌ، فَعِنْدَ صَاحِبِ الْجَمَلِ الْأَحْمَرِ، إِنْ يُطِيعُوهُ يَرْشُدُوا))، فما كان الاختلاف في الدين، والمعارضة للحق، سببا لنكران مع عند الآخرين من الميزات، وحسن الصفات. وإن كان هذا العدل مطلوبا في حق من جانبوا دوحة الإيمان، وخرجوا عن حمى الرحمن، فإنه مع من يدين بالإسلام، ويدخل في نظم عقيدة التوحيد يكون أبلغ وأظهر، وإن كان على خلاف أو اختلاف. وقد يجانب المرء

(1) سورة الفرقان/ ١٩.
(2) سورة المائدة/ ٨.

العدل –أيها الأحبة– عندما يصف سلعة أو بضاعة، أو يتحدث عن مؤسسة أو منظمة، فإن كان محبا لها مؤيدا، أو مروجا لها داعيا، وصفها بأحسن الصفات، وجميل المميزات، واستمات في نكران كل عيب، ونفي كل ريب، وإن كان مبغضا لها كارها، أنكر المحاسن والمزايا، وأظهر من العيوب الخفايا. والمؤمن يلزم العدل في كل أحواله، فلا يحمله الحب على الشطط، ولا البغض على الغلط. فاعدل في القول – إخي المؤمن– مع من خالفك، واعط الحق لمن أغضبك، واحرص على ألا تظلم وإن أبغضت، وألا تجور ولو سخطت. جاء عن رسول الله ﷺ قوله: ((ثلاث منجيات، خشية الله تعالى في السر والعلانية، والعدل في الرضا والغضب، والقصد في الفقر والغنى، وثلاث مهلكات، هوى متبع، وشح مطاع، وإعجاب المرء بنفسه)).

عباد الله:

يُروى عن أم المؤمنين عائشة–رضي الله عنها– أنها قالت في وصف أم المؤمنين زينب بنت جحش: (ولم أر امرأة قط خيرا في الدين من زينب وأتقى لله وأصدق في الحديث وأوصل للرحم وأعظم صدقة وأشدّ ابتذالا لنفسها في العمل الذي تصدّق به وتقرّب به إلى الله تعالى)، فما أحسن هذا الوصف منها وهي تتكلم عن ضرتها، التي سبق أن قالت عنها: (وهي التي كانت تساميني منهن –أي من أمهات المؤمنين– في المنزلة عند رسول الله)، فلم يمنعها ما بينها وبين ضرتها من مشاركة ومنافسة عن قول الحق فيها، والحديث عن شمائلها، إنه العدل في القول –إخوة الإيمان–. إن المنافسة التي تكون بين زملاء الدراسة والعمل، والمشاركة التي تجمع أهل وظيفة أو مهنة، والمصالح الشخصية التي تعترض علاقة الإخوة والأقارب، قد تولّد الغيرة والحسد، وتسبب البغضاء والشحناء، فيحرك الهوى لسان أحدهم ليذكر عيوب زميله أو أخيه، ويصف مساوئ أقرانه ومنافسيه، وينكر معروفهم ومحاسنهم، وقد قيل لذلك: (كلام الأقران لا يقبل إلا ببرهان). وربما كانت نكأة الهوى في أحدهم أبلغ، فيلفق من الحديث ويخترع من الأوصاف ما لا وجود لها في من يزاحمهم وينافسهم، وإنما البُهتانُ لسان أهل الجهالة.